المهرولون.. رهانات قلقة

متابعة مسرحية / اسعد الهلالي

● ألا ترون معي أولاً أن تجشم فريق من المشتغلين بالعمل المسرحي عناء السفر من تعز لتقديم عرض مسرحي في صنعاء يستحق الإطراء، أرى أن من واجبي ومما تحتمه اللياقة أن أقول لطاقم العمل المسرحي التعزي- المهرولون- شكراً لأنكم كنتم شجعاناً لتصارعوا صعاباً محبطة وتمتلكون الكثير من الإصرار على تقديم عمل ربما كان سيقضي على أمانيكم الجميلة إن تغلبت صعابه على إصراركم، رغم أني أود أن أذكر أن أيا من هذه الصعاب لن تهم المشاهد الذي جاء ليشاهد عرضاً يقدم له شيئاً يود أن يحصل عليه كنتيجة لقراره القدوم إلى صالة العرض واحتمال الجلوس على كرسيه منصاعاً لاشتراطات مقدم العرض المسرحي.. كان هناك من تبرع بإخباري بأن الطاقم لم يتمرن سوى أربعة أيام وإن كل عمليات التهيئة لعرض العمل استغرقت أسبوعا، وأن مستلزمات الديكور والإكسسوار تبرع بها الأخ شوقي هائل سعيد أنعم في اللحظات الأخيرة، أعلم أن هناك من سيذكرني بأن المعايير النقدية لا تعرف مثل هذه الاعتبارات بل وتستهجنها أحياناً لكن علينا أن نتعامل مع واقع أن هناك مسرحاً يجب أن نعمل جميعاً على تنشيطه ودعمه، والعمل المسرحي نتاج مؤسسي أكثر منه حاصل فردي إلا في حدود معينة لن نتطرق إليها الآن إذ لا تمثل ما هو سائد في الساحة المسرحية اليمنية، لذا حين يصارع بعض من محبي هذا المجال الثقافي الحيوي متممين ما لم توفه المؤسسة الثقافية ذاتها بشكل كامل معتمدين على صدق انتمائهم وتقدير مشجعي النشاط الثقافي وأبرزهم أبناء المرحوم هائل سعيد انعم الذين عرفوا بعطائهم من خلال مؤسسة السعيد أو عبر التشجيع الشخصي .. تمثلت أول الرهانات القلقة في اختيار الأخ المخرج أحمد مبارك واضع رؤية العرض المسرحي- المهرولون-لنص نزار قباني ذي الرؤية الأحادية التي تفتقد لمفردات النص المسرحي من حبكه وتنام وصراع وذروة وانفراج وتطهير- كتارسس- هذا إن افترضنا الاشتراطات الارسطية، لكن لندعها جانباً على اية حال فنحن أمام شكل مسرحي مختلف يفترض علينا أن نسير وفق ما حدده من مسار.. كان الحماس بعم الجمهور الذي ضج بالتصفيق حين رفعت الستارة لنرى ديكوراً بسيطاً موحياً بدا في عمق المسرح بار صمم بواقعية جسدتها منصة البار والكراسي التي صفت أمامه والقباني التي وضعت فوقه وكسرت حدة الواقعية قليلاً الستارة الخلفية البيضاء التي رسمت عليها بعض القباني كمفردة متممة لمكونات البار محاكية واقعيتها.. وتوسط المسرح شذروان لم يكن ثمة داع لوجوده إلا إذا استثنينا استثمار المخرج له في ارتقاء الضابط الأمريكي- أدى دوره الممثل المبدع آدم سيف- وحين أرى أن لا داعي لوجوده أو على الأقل استبداله بمفردة أخرى من مفردات الديكور فلسبب يرتبط ببديهية أن كل ما يظهر على المسرح يعني إشارة يتلقاها المشاهد بلا حيادية، إذ يعمل على تفسيرها وتاويل دلالاتها، ومثل هذا الشذروان الذي عرفت به المنازل الشعبية الشامية، في دمشق وحلب وحماه رسمت لدي علامة استفهام لم أجد لها حلاً فقد حصر المخرج موضوعه ضمن المدار الفلسطيني، ولا علاقة لهذه المفردة البصرية بأي موضوع فلسطيني، ربما كان الديكور موفقاً في التجريد البسيط والجميل للخيام الفلسطينية بلونها الكاكي وعبارة(الخلود للشهداء) التي بدت على إحدى الخيام ولطخة الكف المدمي، وهنا لم يكن ثمة داع للعلم الفلسطيني الذي كان إشارة أولى للمباشرة الفجة، أعلم أن العمل تعبوي تحريضي لكن هذا لا يلغي افتراض احترام ذائقة المشاهد الذي يود أن يتماهي تدريجياً في لعبة فنيي الصوت..

بالعلم ستقهران الأعداء، يجب أن تتعلما، نصيحة مباشرة قدمها الجد - خالد الدحومة- لحفيديه جهاد ونضال بعد أن أوضح أن أباهما ذهب للجهاد، بدا واضحاً اننا أمام عمل مباشر وتحريضي حددت ملامحه قصيدة قباني المنسمة بهاتين السمتين ويبدو أن الأخ المخرج أحمد مبارك حاول توفير إطار درامي مسرحي فعمد إلى زج حكايتي الجدين ثم قدم النص الشعري موزعاً مقاطعه على بعض الشخوص، لقد بذل الأخ المخرج العديد من المحاولات لتجسيد دلالات النص عبر أدوات خارجة عنه لذا أوجد الضابط الأمريكي- الإسرائيلي، لا فرق فقد ظهر مرتين مختبئاً تحت المظلة التي توسطتها نجمة داود، أوجد كذلك الجنود المحيطين به والعربيين بعقاليهما وترنحهما الثمل ومشاركتهما ضحكات الضابط بما بدا مثيراً للاستغراب، هنا أود أن أشير إلى ملاحظة أقدمها للمسؤولين عن التجهيزات الفنية الأخوين فؤاد الحدا وعبد الكريم الحاج وقبلهما الأخ المخرج، فقد تسببوا ببعض الإرباك للوهلة الأولى التي ظهر فيها الجنود المرافقون للضابط حين بدا الجنود ببنادق توحي بانتمائها للمعسكر الاشتراكي السابق، ومن المعروف أن الأمريكان أو الإسرائيليين لا يحملون بنادق الكلاشينكوف، فهل تراهم جنوداً مصريين أو سوريين أو عراقيين وهم من اعتادوا على حمل هذه البنادق، من الواضح طبعاً أن بنادق العوزي أو الإم ١٦ التي يحملها الإسرائيليون غير متوفرة ولم يمتلك المسؤولون عن التجهيزات الفنية الوقت لصناعتها فقدموا ما هو متوفر فغدا الأمر مثلبة تحسب عليهم.

ردد الأخ عبد الكريم مهدي أول عباراته مع الأخ خالد الدحومة: جوعوا أطفالنا خمسين عاماً ورموا في آخر الصوم إلينا بصلة، فبدا البكائي الذي مال أحياناً للإعلانية التي جسدها الصراخ لا الأداء بمعناه الإبداعي. إنها على أية حال إشكالية وقع فيها العرض المسرحي حين تقرر اختيار قصيدة "المهرولون" لتقديمها معتمدين على بعض المسلمات منها، سهولة في التجسيد، محدودية في مفردات العرض، جاهزية في القوالب التي ستؤطر العمل وهذا ما ظهر جلياً في العديد من الكليشهات الجاهزة منها أداء الممثلين، كان واضحاً امتلاك الأخوة المبدعين آدم سيف، وعبد الكريم مهدي وخالد الدحومة طاقات أكبر مما تتيحه الشخصيات التي قرروا تقديمها والتي فرضت عليهم محدوديتها فكبلتهم بقيود الأداء الجاهز، السطحي في بعض الأحيان.. ومما أحزنني مشاهدتي للمبدع آدم سيف الذي يمتلك طاقة أدائية هائلة تضعه في مصاف كبار الممثلين، وقد دار في دائرة من التكرارات لضحكات ذات نبرة استفزازية وعبارات مباشرة المعنى والأداء، وهذه إحدى الكليشهات التي وقع فيها العرض المسرحي- المهرولون- ، وفي واقع الأمر كان العمل عبارة عن سلسلة من الكليشهات الجاهزة المكررة، فلو استذكرنا الموسيقى لرأيناها رسخت قيمة الكليشيه عبر تنقلها من الناي الحزين للشيخين وتباكيهما والموسيقى الغربية التي تميل للحماسية حين يبدو الضابط وجنوده.... الخ..... وربما تسببت شخصيتا العربيين الخائنين بعقاليهما وثمالتهما ببعض الإرباك للأخ المخرج.. إذ يبدو أنه لم يردهما خائنين قدر ما أرادهما نموذجاً لأثرياء البترول العربي الذين رسم قباني ملامحهم في العديد من قصائده، لذا بدا الاضطراب واضحاً حين يظهران منغمسين في الخيانة الرغالية الذي ابعد حد فنراهما يكرران ضاحكين عبارات الفرح التي إلى قدمها ضاحكا الضابط الإسرائيلي: سقطت غرناطة من أيدي العرب.. سقطت اشبيلية، أنطاكيا.. الخ.. فنراهما جذلين وهما يصفقان لهذا السقوط حتى بدا ذنباً لهذا الضابط إلا انهما سرعان ما يرفعان إشارات النصر ويشاركان في مراسيم الانتفاضة التي صالت وجالت على المسرح في جزء من زمن العرض المسرحي... وربما ما كان الأكثر قرباً لشخصيتهما ذلك المقطع الذي رددا فيه: سقطت آخر محظياتنا فعن ماذا ندافع؟...

تعرض العرض المسرحي لخلل فني سبب شرخاً في التلقي، كان ذلك حين ظهر الصغيران بملابسهما العسكرية وهما يغنيان ، فقد كانت الموسيقى صاخبة، إلا أن صوتيهما غائبان في خلل تسبب به فنيو الصوت.. لذا لم نسمع سوى تلك المناداة المكررة: قتلونا يا عرب... انقذوا فلسطين... أو هذا ما بدا لي... وحين تلى تلك الاغنية مقتل الصغير الذي رمى الحجارة على الضابط فأرداه أحد الجنود ببندقيته الكلاشينكوف!!!!!فشيعه الفلسطينيون وسط ضجيج ضحكات الضابط المستفزة وتعمد الجنود طرد الصحفي الذي كان يصور ما يجري في اشارة واضحة لمحاولات اسرائيل في شطب الحقيقة.. شهدنا تنامي الصلف لدى الضابط الذي ظل يكرر أن كل شيء صنع في أمريكا حتى الكعبة.. ولعل ذروة هذا الصلف كانت حين جرد الضابط حزاماً ظل يكرر ضرب ذي العقال به، كان الجد الفلسطيني يكرر: انتهى العرس ولم تحضر فلسطين الفرح.. لتطغى أخيراً هتافات: ابداً ابداً يا أمريكا.. ثم ينتهي العرض بأغنية أداها الفنان آدم سيف لم تكن ثمة علاقة بينها وبين العرض المسرحي خاصة أن وجود الفنان آدم في موضعين متناقضين يسبب ارتباكاً كبيراً، ولا أظن أن دافع عرض الأغنية كان مجرد المجاملة للفنان آدم سيف.. ربما لو ظهرت الأغنية دون تجسيده الصوري لها لهان الأمر... رغم أن ذلك المقطع الذي قال فيه: نشوي لحمك نكسر عظمك نشرب دمك... ذكرنا بعبارة جمال عبد الناصر.. سنرميهم في البحر.. ما اشبه الليلة بالبارحة.. لقد وضعت اغنية الاخ آدم سيف النهاية الدراماتيكية لقضية فلسطين.، وربما لمجمل القضايا العربية، فقد خاطب اسرائيل قائلاً: أنت بدبابة وطيارة وكاتيوشا واحنا معانا الله، وهذا هو واقع الحال فنحن نمتلك الكثير من الطاقات الهائلة للتباكي والدعاء بمناسبة وبدون مناسبة، ونود أن ننتصر على من يمتلك الدبابة والطيارة والكاتيوشا، والغريب أن الاخ المخرج لم ينتبه إلى أنه وقع في التناقض الكبير بين انغماره في التسليم وبين واقع الحال على الأرض الفلسطينية التي لم تكتف بالتباكي والدعاء بل واجهت العدو بما تمتلكه من طاقات للمواجهة سواء بالحجارة أو السلاح البسيط أو الأيدي العارية من كل سلاح، وربما لن تبدو مفيدة... الإشارة إلى أن الكاتيوشا الروسية الصنع تعد السلاح المهم للمقاومين لإسرائيل سواء كانوا فلسطينيين أو لبنانيين جنوبيين، ولا أظن إسرائيل تتعامل مع صواريخ الكاتيوشا.

لقد انساق العرض المسرحي- المهرولون- لجملة من المسلمات، وأطر محتوى العرض بترجمة صورية لقصيدة نزار قباني- المهرولون- ربما كانت موفقة في بعض المواضع وهي قليلة لكنها لم تكن كذلك في أغلب المواضع، وهذا ما أدى بالنتيجة إلى عدم الخوض في ما يجب أن يخوضه المبدع والإنسان العربي من تفسيرات وتحليلات ترينا أسباب سقوطنا وترديننا كي نتجاوزها، لسنا بحاجة إلى البكاء فقد بكينا كثيراً.. اننا بحاجة للوعي والاستيعاب وفهم الذات.. وهذا ما كان الأجدر بأن يقدمه لنا العرض المسرحي..

HeIai33@Yahoo.com